

## مُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِ!

أهو إجتماع فِطْرَة، أم إجتماع ضَرْوْرَة، أم إجتماع مَصْلَحَة إنتهازية؟

لطالما تساءلت عن طبيعة هذا المخلوق العجيب؛ والمسمى إنسان. فكرتُ طويلاً وعميقاً في الأقوال والأفعال، في أنماط المعاش وحيثيات السلوك. درستُ الخطوط العامة لحياته، دققتُ في الاستثناءات. بحثتُ في محفّرات الفعل عنده، كما وبحثتُ في المُركّبات. حاولتُ استقراء القوانين الناظمة لحركته، استخلصُ الأهداف والغايات.

تأملتُ طويلاً وكثيراً في علاقة هذا الإنسان مع شركاء الوجود. وشريك الوجود قد يكون من ذات النوع والجنس، كما ويمكن بداهة اختلافهما في واحدة منهما أم الاثنين معاً. قد يكون شريك الوجود مُتحركاً أو ساكناً. والحركة قد تكون لوظيفة أم لطبيعة، كذا هو القول في السكون لا مفاضلة في ذلك أم تبديل. فالإنسان مُتحرك حرّ طليق، وفي هذا طبيعة ووظيفة. والنبات ساكن لا يُبارح منبته ما أقام، لكنّه لا يهدأ بيتغي مركز الأرض نقياً يُقارب السماء. فيتقاسم الاثنان الإنسان والنبات الحياة صفة، فلا يتمازان فيها أو يختلِفان. فأما الهواء فمُتحرك طليق، وفي هذا جامع بينه وبين المخلوقات من عالم الحيوان. بيد أن الحياة صفة تُفارقهُ على ما يصف ويحب هذا الدعي الإنسان. وأما سكون الجبل فوقاً، يمنح الجبل ما شئت من صفات الشموخ والقوة والثبات والأنفة. لكنّه لا يخدم في منحه الحياة صفة في علم ومُدرِك أصحاب البيان.

اعتمدتُ المُقارنة مبدأً حين البحث والاستنتاج. قارنتُ القواسم الجامعة لسلوك الإنسان المُترعش مع نمطية السلوك المُستقرّ عند شركاء الوجود من عالم الأحياء من نبات وحيوان. انتخبْتُ لرضي نوعين من عالم الحيوان النحل والأسود، وكان الإنسان ثالث العوالم وهدف المُقارنة الأساس. تمثلُ العوالم الثلاثة الأنماط الثلاثة للاجتماع على ما أرى. وعلى القارئ أن يقيس ومن ثم يُصنّف على ما تجود به قريحته في هذا المخصوص.

حقيقة، ما جادت به عيون البحث والاستقصاء في عالم الحيوان أكثر من أن يُحيط بها مقالي. كثيرٌ منها ممّا يُثير الرهبة قبل الدهشة لروعة الخلق وعبقريّة التدبير. بيد أنني أترتُ انتقاء الأكثر قرباً لمُدرِك الإنسان تسهيلاً واختصاراً. فالنحل على ما تعرفون، وكذا هي الأسود. فلن أضيف إلى معارفكم الشيء الكثير في هذا الشأن. ممّا يُتيح لي التوسعة والتفصيل في خصوصيات سلوك الإنسان حين اجتماعه وتواصله مع الآخرين. سواء، اتفق معهم في النوع والجنس أم خالفهم.

## اجتماع النحل

يعيش النحل في ممالك يبنها بتعاون أفراد المملكة جميعهم، لا يقعد أحد منهم عن الفعل المُفيد أو البناء. الكلُّ حسب اختصاص مُنح له منذ بدء التكوين. فهناك الملكة في أعلى هرم المملكة. تملك الجاه والحيثية الأهم في المملكة، لكنها لا تحكّم. لها الدور الأساس في الوجود، فهي أم الجميع ولا استثناء. تقضي اليوم في وضع البيوض، ولا تتعب. لا تدري الحال والأحوال خارج مكدعها، فهي دائمة العمل مُثابرة. يصلها زادها على أحسن ما يكون عليه الزاد، فلا تسأل. وهناك الحاضنات للبيوض، والعاملات الذوّبات. وهناك الذكور حمله الجينات والمورثات، هناك المُقاتلات. هناك المُستطلعات، هناك المُدبرات الحكيمات.

جيش من المُختلفين المُتماتلين. اختلفوا وظيفته، لما كان الاختلاف عامل بناء وضرورة بقاء واستقلالية. وتماتلوا حيناً ورائياً وانتماء إلى مملكة هم صانعوها. لا يختلفون أبداً حين سعيهم وحين مقامهم. تؤمن الساعات منهنّ غذاء المُقيّمات. وتسهر المُقيّمات منهنّ على صحّة المسكن كما وسلامة الجيل القادم من أبناء المملكة.

الذكور في الدفاع عن حصون المملكة يُساعدون، وفي نهاية المطاف هم على تلقيح الملكة يتنافسون. لا نزاع في ذلك، بل تفضيل. الأسرع والأثبت في سباق القوة يغنم الملكة ويفوز. فلا يُناطح ذكر ذكراً أو يدور. ميدان السبق هو الفبصل والحكم. الأصلح حيناً يُنتخب أباً للجيل القادم. وبذلك، يغنم الجميع مادام حفظ النوع هو الغاية والهدف.

تناغم الجمع، فهم على ما فطروا عليه باقون. العمل مقسوم بينهم، وهم على ما قسّم إليهم يحرصون. لا يتقاعس الفرد في عمل عهد إليه، فيتساهل. ولا ينظر إلى مكسب فرد إلى غيره، فيتكاسل. الكلُّ في هدوء وثقة يكدحون. لا ينفطع الفرد عن العمل مادام حياً. ولا يفك ارتباطاً بمملكته ما انفك إليها سميّاً. لا صراع تفاضل، أم تمكين. الفرد في خدمة الكل، ولا يبخل الكل هذا الفرد في التأمين.

جيلٌ ينقلُ الأمانةَ أميناً إلى جيلٍ. الملكةُ الجديدةُ لا تُقاتلُ أمَّها الملكةَ، ولا جيلُ اليافعينِ يُطاحنُ الجيلَ القديمَ. فمتى حدثتْ وكثُرَ العديدُ وضاقَ القفيرُ عن احتواءِ الجميعِ، تُغادرُ الملكاتُ الشاباتُ حصنَ الملكاتِ الأمهاتِ ويتبعهنَّ طرودُ اليافعينِ. العالمُ فسيحٌ، والعملُ كثيرٌ يحتاجُ الجميعَ ويفيضُ. فلا ينشغلُ النحلُ في حربِ إبادةٍ أمِ إزالةٍ. الوقتُ آمنٌ من أن يُهدرَ في هكذا هرطقةٍ أو تلكِ مُنازلةٍ. فينهمكُ النحلُ الخلفُ في بناءِ مملكتهِ الفتيَّةِ، ويستمرُّ السلفُ على ما فطرَ عليه عتياً.

هي الفِطْرَةُ ما يجمعُ النحلُ في جَمِيلِ مملكةٍ. هي الفِطْرَةُ ما يحملها للعملُ بهذهِ الرَوِيَّةِ. يتناغمُ الكلُّ خدمةً للوظيفةِ. والوظيفةُ من السُمُوِّ والضَّرورةِ ممَّا يجعلُ الفردَ كما المجموعَ ضنيناً على الدَّورِ. فلولا ممالكُ النحلِ لما تنوعَ اللُّونُ في أرضِ اللهِ وانتشرَ. ولولاهُ لما تزيَّنَ الشَّجَرُ بأجراسِ بهيجَةٍ من الثَّمَرِ. ولما انتفعَ الإنسانُ كما الحيوانُ من حُلُوِّ هذا العسلِ الأغرِّ.

والثَّمَنُ لا شيءَ. هي تعملُ ولا تنتظرُ أجراً عن عملها. ترشِفُ رحيقَ زهرةٍ، فتحملُ منها ودائعَ جيئَةٍ. تنتقلُ إلى أخرى، فتتركُ لها الودائعَ عطيةً. فتسعدُ الأولى بانقضاءِ الدَّورِ، وتفرحُ الأخرى بالعطيةِ هديةً. والنحلةُ هانئةٌ بفعلها، تنتشرُ الفرحَ والبهجةَ حينَ تحملُ وحينَ ترمي. ولا تنفكُ هذه الهانئةُ تعملُ إلى أن تغيبَ شمسُ خالقها. فتعودُ بحملها الثَّمينِ إلى قفيرها. تُكدِّسُ عصارةَ الزَّهرِ عسلاً ولا أعلى غِذاءً وشفاءً لها ولغيرها من عبادِ الرَّحمنِ.

لا عاقلٌ يعتقدُ باستمرارِ الحياةِ على هذه الأرضِ بدونِ هذه الصَّغيرةِ. فمستقبلُ النَّباتِ والحيوانِ كما الإنسانِ رهينٌ بصنيعها فيهم وفيها. إن غابتْ، ضنَّ الزَّرْعُ وشحَّ الشَّجَرُ وأحتبسَ الخيرُ. فيقلُّ العاشبُ من الحيوانِ ويتدَّرُ. ولنَّ يجدَ اللَّاحمُ ما يفتاتُ عليه من طريدةٍ، فيزوي بدوره ويضمُرُ. كذا هو حالُ الإنسانِ، إن غابَ النَّباتُ وقلَّ اللحمُ فما عساهُ يَلتَقِمُ من بعدهما إلا المرُءَ ومن ثمَّ الأمرُ. فتأمَّل!

## اجتماعُ الأسودِ

منحهُ اللهِ القوَّةَ والهيبةَ، فأكثرَ منهما وأنعمَ. فكانَ أن لحقتَ بهما لازمةٌ لا تفارقُ أبداً؛ غلظةٌ في الجسمِ كما الطَّبَّاعِ. أسكنه السُّهوبَ حيثُ يبتعدُ الأفقُ فلا تُدركهُ الأبصارُ. ثمَّ كانَ الأمرُ الوظيفةَ أن ألقِ الرُّعبَ كما الموتَ في أصقاعِ مملكتهِ هذه. فإنكُ إن تكسلتَ يستعمرَ العاشبُ السُّوحَ، فينهكُ الزَّرْعُ ونفقُرُ الأرضُ. فالأعدادُ كبيرةٌ، وهم على ما فطروا عليه من حميَّةٍ وقوَّةٍ لا ينفكُون يتوالدون.

وحيثُ تترامى الأبعادُ ويتسعُ المدى تصيحُ السُّرعةُ مطلوبَ جميعِ المُتحرِّكينِ من مفترسٍ وفريسةٍ. فلا سلامةٌ تُرجى لبطيءٍ خسيعٍ، كما لا طعامٌ يُشتهي لمفترسٍ كسيلٍ. والأسدُ امتحنَ في بنيتهِ بطءَ الحركةِ. إذ لا تجتمعُ القوَّةُ ولازمُها غلظةُ البدنِ مع رشاقةِ الحركةِ ومدياتها. وأمَّا الفرائسُ الضَّحايا، فمنهم من اكتسبَ رشاقةَ المناورةِ كما وسرعةَ الحركةِ. وبعضها أثرُ القوَّةِ والغلظةِ وسيلتهُ، ولم يعدمُ من سرعةِ الحركةِ نصيباً. الأسدُ يتصورُ جوعاً ويمتازُ غيظاً، والفرائسُ من حوله هازئةٌ تجولُ وتصول. فما عساهُ يفعلُ؟

عندها، أدركَ الأسدُ ضرورةَ القبيلِ. فوحيداً، هو أعجزُ عن ملءِ جوفهِ النَّهمِ. ووحيداً، قد يُصبحُ وجودُهُ بقدهِ وقديدهِ موضوعَ مُساءلةٍ على ما يبدو. فلا قوَّةٌ تنفعُ حينها، ولا وقارُ الشَّكلِ والطلعةِ يمكنُ أن يفيدَهُ. لا بُدَّ إذاً من العددِ لقهرِ السُّرعةِ كما القوَّةِ. هو من القوَّةِ والهيبةِ ما يُتيحُ له قيادةَ الجمعِ. والقيمةُ المُضافةُ من الاجتماعِ قادرةٌ أن تقهرَ أقوى الفرائسِ وإن تكافلتْ، كما وقادرةٌ على أن توقعَ بأسرها حركةً وإن تمرَّستْ.

محكوماً بغريزةِ البقاءِ، وأكيداً من ضرورةِ الاجتماعِ، عمدَ باكراً إلى الإناثِ يستميلهنَّ. فهنَّ أقلُّ قوَّةً منه، فالسَّيطرةُ والسُّطوةُ ملكٌ يمينه.. فلا يقلقُ. وهنَّ أقلُّ حجماً، فالسُّرعةُ أصبحتُ طياً في قبضةِ المُمكنِ.. فلا يجوعُ. وهنَّ الخصوبةُ، فالعددُ صنوُ القوَّةِ والمُلكِ وهو لهنَّ كفواً.. فلا يعدمُ.

لم يجهدِ الضَّرغامُ كثيراً في لَمِّ القبيلِ من حوله. فاللُّبواتُ لا تعدمُ الحيلةَ والنَّدبِيرَ، كما لا تعدمُ القدرةَ على الاستقراءِ والاستنتاجِ. فهنَّ وجدنَّ في اللَّيثِ الوسيمِ ذا الهيبةِ والطلعةِ البهيةِ. وجدنَّ فيه القويَّ ذا الشَّكيمةِ، وجدنَّ فيه الحميَّةِ. وهنَّ على ما فطرنَ عليه من غريزةِ الأمومةِ والبقاءِ، وهو على ما فطرَ عليه الذُّكورُ من حبِّ التَّسديدِ والاعتلاءِ.

اجتمعَ الاثنانُ على ضرورةِ الاجتماعِ، فكانَ أن عاشَ الأسودُ قبيلاً وجماعاتٍ منذُ ذلك الحينِ. همُ امتحنوا الوحدةَ والنَّفردَ طويلاً وكثيراً، بيدَ أنَّهم نجحوا لما اجتمعوا ولما اتَّحدوا. دانتهُ لهم السُّهوبُ والبطاحُ لما علموا السَّييلَ إلى ذلكِ، فاجتمعوا ومن ثمَّ اتَّحدوا. دان لهم الجميعُ خوفاً وتقيةً لما خبروا قيمةَ القوَّةِ المُضافةِ حينَ الاتِّحادِ،

فأتحدوا لما اجتمعوا. عرفوا غدرَ الزمانِ وسطوةَ الطبيعةِ القلّابةِ، فثبثوا لما أدركوا ضرورةَ الاجتماعِ والاتّحادِ. فسريعاً ما اتحدوا لما كان لهم أنْ لموا الشملَ واجتمعوا.

## اجتماع الإنسان

وفي اجتماعه قصصٌ وحكاياتٌ كثيراتٌ نواتٌ شجون. كيف لا! وقد كان قبلَ ذلك في خلقه، حدثٌ ما شئتَ وشاء، من فعلِ شقاقٍ وفنون. فما ارتابتِ الملائكةُ يوماً فعلاً أرادهُ الخالقُ العظيم. ولما يعص من قبلُ مخلوقٌ عرفَ ربّه حتّى كان الشيطانُ الرجيم. ومن حينها، الإنسانُ والشيطانُ في حوارِ حامِ الوطيس. نادراً ما ينعمُ هذا الإنسانُ، وكثيراً جداً ما ينجحُ بفعلتهِ إبليس. لا هذا يركنُ إلى فطرةٍ صحيحةٍ، ولا ذلك يتركه وسوسةً بكلِّ فعلٍ خسيس.

ولا أدلُّ على قبلي من سردٍ مطوّلٍ لمسيرة حياةِ هذا الإنسان، مُنذُ أنْ كان في المهيدِ الوثيرِ إلى أن طواه بظلمتهِ وعفرتِه اللحدُ المهيب. وعليك أنْ تجدَ بعدها المحراكَ الأساسَ في اجتماعِ الإنسانِ مع غيره من البشر. أهى الفطرةُ تحكّم، أم الضرورةُ، أم المصلحةُ الانتهازيةُ ما يجمعه مع الآخرين.

ما إنْ يفسحَ نورَ الصّباح، وعندَ عتباتِ فجره النّديّ، يبتأ برأسه يستشعرُ حرارةَ الوجود. يُعين المكان، يألّفه. متى أيس منه الدّعة والكياسة، يتركُ عناصرَ اليقظة أنْ أفيقوا هاكمُ شمسُ دُنياكم قدْ أشرقَتْ. فيبدأ مشوارَ الحياة، تحكّمه غريزةٌ وحبٌّ بقاء. زادهُ عقلٌ مُفكّرٌ، ويحدوه بلا مُهادنةٍ أو فتورٍ شيطانٍ رجيم.

يبدأ الإنسانُ حياته مُتسلّحاً بغريزةِ البقاءِ وحبِّ الاستحواذ. وهو في حضنِ أمّه رضيعاً، لا يملكُ من أسبابِ القوّةِ سوى فمٍ صغيرٍ نهمٍ وحنجرةٍ قويةٍ تجيدُ فنَّ الصّراخ، ينجحُ الصّغيرُ في تجنيدِ ضعافِ القلوبِ لخدمتهِ. الجميعُ من حوله في حركةٍ دائمة. أمّا هو فساكنٌ في مهيدِ الدّافئِ يمتصُّ الوجودَ كما تدي أمّه. يُراكمُ في جوفه عناصرَ استقلاله. هو يعلمُ بقربِ الفطام، لكنّه يستمهلُ القطيعةَ ما استطاع. وفي الانتظار، هو لا ينسى أنْ يرمي هنا وهناك بعضَ الاشراقاتِ من ثغره الوضّاءِ تسليّةً لجمعِ الحاشيةِ، ودفعاً ما أمكنَ ليقظتها القادمةُ لا محال.

ينمو الرّضيعُ، يقفُ على ساقينِ مُرتجفتين. وبحياء، يخطو أوّلَ خطوتين. يمدُّ يديه إلى الأشياءِ يدورّها، يعلمّها ومن ثمّ يستخدمها. هو حاسمٌ لأمره، يريدُها إنعتاقاً ويعشّفها حريةً. ينمو جهازه العصبِي، فيزيدُ من سرعةِ تواصله مع مفرداتِ الوجودِ من حوله. يستكثُر، ما أمكنه ذلك، من عناصرِ القوّةِ وأسلحةِ التّثبيت. وهو في حيوه وترنحِ خطوتهِ، في عناقهِ الأرضِ وفي تخليه، لا ينفكُ يستطفُ المحيطَ يلهمه وهمٌ في بلهنيةٍ وبلاهةٍ إيّاه يُناغون.

ثم يافعاً يعاينُ الوجود. يستشعرُ جمالَ الكونِ ووسعَ المكان. أصبحَ الآنَ أكثرَ وثوقاً وثباتاً في الخطى والأفعال. تتجاسرُ يدُ فضولٍ منه فتمتدُّ تتحسّسُ حرارةَ الأشياءِ، وتتذوّقُ مُتعةَ الامتلاك. هو يبحثُ عن ذاته في مُدركِ الآخرين. كما ويمتحنُ أدواته في مختبرِ المحيطين. ما إنْ يتمكّن من قدراته وأدواته، مدّ شعاعِ الأذيةِ لينالَ الأبعدَ الأمانَ فالأبعد.

فباكرًا تُعاني بناتُ الحيّ من تفجّرِ فحولتهِ، وسريعاً ما يُسمعُ لهاثُ تعجّلها في الجنّياتِ المُحيطةِ والأنحاء. وأنت إذا ما فنّشتَ جيّداً وعميقاً، وسُمحَ لك اللولجُ إلى الأعماقِ الدّفينَةِ لبناتِ حواء، فإنك لا ريبَ واجدٌ كثيراً من الشّطايا الأضرارِ لفورةِ الذّكورةِ هذه. هو يعيثُ، وهنّ يُراكمنَ الأتلامَ النّدبات. هو يتروّضُ، وعلى شبابيكِ الانتظارِ يقضينَ العُمُرَ ساهيات. لا هو يتعبُ، ولا هنّ من أفعاله مللاً أم سأمًا تعبات.

فحواءُ على الدّورِ ضنينّة، وهي لبلوغِ الغايةِ بكلِّ الوَسيلِ عليمّة. وأمّا هو فمنّ الحوّاءِ ينطلقُ، وعلى غريزةٍ فجّةٍ لا معالمَ لها يعمد. لا يدري غايةً، ولا يعلمُ وسيلةً. الغريزةُ حاكمةٌ وهي كلُّ ما لديه، وعليه تدبّرُ ما تبقى. خبرُ الحاجةِ والشّغفِ، وعليه إيجادُ السبيلِ إليهما. لذلك تراه عاملاً يرضدُ عواملَ الجذبِ خاصّته، يُمكّنها. يمتحنُ مهاراتِ الاستقطابِ والتّمكينِ لديه، يُطوّرُها. وجاهداً يبحثُ عن دور، ولا يكسل. وعن حينيةٍ اعتباريةٍ كثيراً ما يجهدُ، ولا يقنع. حواءُ على ما فطرتُ عليه عالمةٌ بالدّورِ الوظيفيةِ، وبالوسيلِ هي واثقةٌ قابضة. وهو، لا سهامَ في جعبتهِ ولا زاد. من خلاءِ يتعلّمُ أبجدياتِ الحياة. هو يخلقُ الوَسيلَ، يبحثُ عن الدّور. وفيهما يخوضُ ويدورُ، وصاحبُهُ ما أقامَ هو القلق.

وأما المكانةُ فمع الأترابِ الأصحابِ نشأها. يعتزكُ معهم، يختبرُ منسوبَ القوّةِ الجسديّةِ لديه. شعرَ بارتفاعِ المنسوبِ وغنمَ الامتيازاتِ والمغانمِ، استثمرَ فيها وغال. أحسَّ ضعفاً، اجتهدَ في تحسينِ الكفاءةِ وبذل. ثمّ يُتحمّ نفسه في امتحاناتِ القوّةِ مرّاتٍ ومرّاتٍ. إنْ فاز، قرَّ عيناً وطابَ معاشاً. وإنْ هو حصدَ الفشل، انحرَفَ إلى سبيلِ العقلِ مُرغماً. لا يختارُ أبناءَ آدمَ سبيلَ العقلِ بادئاً. فهو يبدأ الحياةَ والخزينُ خلوٍ أو يكادُ، ودونَ التّمامِ فعلٍ مُضنٍ وشقاء.

مع ذلك، هو لا ييأس أبداً. فالمكانة هو ساع إليها ما أقام. كثرت الأضرار الجانبية لسعيه أم قلت، هو في شغلٍ عن الأضرار والمضورين. ما يهم هو المكانة، والملك والسلطة من قبل إذا ما قاربنا الثلاثة من حيث الهام والأهم.

ويكبر هذا الإنسان، يكتسب طموح الرجال وأدواتهم. قدرته على الفكر كما الفعل باتت أشد وأمضى. المكانة في الفكر حاضرة، ولا تُبارح. ويُدَّه في الفعل، تبحث عن السبيل ولا تُهادن. شعاع الفكر طويل لا مُستقر له. فالأحلام لا مادة لها، تستبيح السوح والفضاءات ولا رقيب. وأما اليد فمغلولة تشدّها عطالة المادة. يُعدها ثقل الأفعال، ويضنيها بعد الأهداف.

وتشتبك الأيدي، وقليل جداً ما تتشابك. فالمكانة، الجميع لها ساعون. والمكانة، الكل فيها عاملون ولا استثناء. فيكون جوهراً المسألة من يك في الأمام، ومن هم المتخلفون. من هم المحظيرون، ومن يكون هؤلاء المُبعدون. فالمكانة اختارت لذاتها الهرم تفضيلاً، ولم تقبل بغير ذلك من الأشكال تمثيلاً. فهناك قمة الهرم المتأنفة، وهناك قواعد الأرضية. وبين ذلك السماوي وهذا الأرضي، تكدست الطبقات الوسطى توصيفاً. ثم كان الأمر الإشكالية أن عملوا على مكانتكم فأنتم من العاملين.

تسابت الجموع على المكانة والرتب، ولما تتسامح. التقم التراب أضعفها، ممن تواضعت أحلامهم أو سريعاً ما خارت عزائمهم فلما يثبتوا. واعتزشت القمة أشدها، ممن التمعوا طموحاً فسعوا إليها ثابتين ولما يتهيبوا. تسلقوا السبيل إليها، ولما يسألوا. بذلوا الكثير من العرق والدماء، ولما يهتوا. كَوَمُوا الصّرر لذاتهم ولغيرهم ربماً، ولما يقعدوا. راكموا المكاسب والخبرات، حتى كان لهم أن أخيراً وصلوا. ولما ينته كدحهم، إذ عليهم المثابرة بالفعل والبذل إن هم أرادوا في القمة أن يصمدوا.

وترامى الجمع ممن ناضلوا ما استطاعوا بيد أنهم دون القمة وفي الطبقات الوسطى هم أقاموا. أرادوها غاية هدفاً، لكن الأذى قطعها باكراً وما دون الشرف الرفيع هم حصداً. عافروا ما أمكنهم أن يفعلوا، ضاقت القمة فكان لهم أن توازعو الطبقات الوسطى وانتظروا. يحدهم الأمل في بلوغ الهدف، وهم على ما عقدوا في وجدهم قد أسروا وقد عزموا. وعلى هذا المنوال سيقضون عمرهم ما حاكوا، وما نسجوا.

فالمكانة لا تكون لكل من أرادها، أو صادقاً وحثيثاً سعى لها. هو امتحان جدارة وثبوت، لا يغنم فيه إلا القليل. وعلى الآخر الكثير أن يعيد الكرة في كل مرة، ويعيد. وإن هو فارق العزم، فعليه أن يقنع بما قسم له فلا يطلب أكثر من ذلك أو يزيد.

ويشيخ الإنسان، وتعود إلى حيث انطلقت الدوائر. فهو كما بدأ ينتهي، ضعيفاً ومُعتمداً على الآخرين ينتهي. قضى ثلث عمره الأول مُعتمداً على الوالدين، وها هو ينهي ثلثه الأخير على الأبناء يُعتمد. فلا حياة له من دون الآخر بادئاً، ومن دونه أخيراً هو الشائب الأخرق التَّعب. وإن كان الأمل معقوداً على ناصية الصغير، فما ثراه يحمل على الناصية العجوز ويُدخّر. فيبتلع المسكين الماء حريقاً، وعلى العتبات تراه جالساً منيته ينتظر.

أعجب بك أيها الإنسان! تقضي طرفي عُمرِكَ مُعتمداً تمتص الآخر حباً منهم ومن ثم كرهاً. وفي الأوساط لَمَّا حباك الله القوة فشَدَّ السَاعَدَ منك والعضد، لم ترحم هذا الآخر ولَمَّا تَدخَّر. فبنيت فيه وبهم ما استطعت من ملك، وعلى المكانة ما فترت عاملاً تبني وتجتهد. سَحَرْتَ لملكك ما استطعت من آخر، وفي الكنس والتكديس ما وهنت تلقم المال وتزدرد. هان الآخر أم جاع سواً عليك، فالمال ما يُعني وهو في الأخير الذي يُعتمد.

هي الأمور على ما خبرت، وكذا هي الناس على ما قرأت. فالناس تقاسمت الحظ في الملك العتيب، ومن قسمة العقل الفصيح لم يُحرموا. فارتضوا قسمة العقل وما استزادوا يوماً، وما طلبوا. وفي قسمة الملك العتيب ما قنعوا أبداً، ولا هم بما قسم لهم قد سعدوا. وهم، على ما أرى وترون، تنتاشوا المال والملك من عهد آدم. ولأجل متاع زائل هم دائم الدوم قد تنازعوا وقد اقتتلوا.

هي حكاية الإنسان من ألفها إلى يائها. قصيدة، اعتمدت إخفاء بعض الجزل الجميل من أبياتها. وأنتأت الكثير الرث من متنها وبنبانها. حتى يصفو المتن، ويمتاز جذع الشجرة النحر عن كسوتها وأوراقها. فيستبين القصد، ونسهل الغاية على جميع قرائها. فلا يتخدع واهم بيريقي مظهر، ولا يؤخذ سامع بمعسول البيان من جهالها. هي حقيقة الإنسان إن جردت، فلا تُغالي بعدها في فضل الحياة أم تُماري غافلين في فضل إنسانها.

## النتيجة الخلاصة

التصقت النحلة بفطرتها، وصدقت. فاصطفت الواحدة إلى كتف أختها، واعتضدت. بنت لها الممالك تنشرها في الأرجاء الواسعة، وحيث أقامت نشرت الخير والنفع وأغدقت. منحت الأرض برقعها الأخضر، وباللون الزاهي أعلت فيه النقش وأبدعت. فعبق الأثير بشذا الزهر، ومن مقطور رحيق ارتوت الخليقة بحلو مذاق وانتفعت. علمت الدور فانطلقت مخلصاً، وبغير الدور ما علمت وما عملت.

فأقبل الخلق، من زرع ومن حيوان ومن بشر، يمتدحون الفعل. وهم من فعل النحلة عاشوا الرغد، وانتعشوا. فلولاها لما حل ربيع بياسة، ولولاها ما انعقد زهر والنمر ما غنموا. ولهجر الزرع الوادي والسهل، ولجفت عين الماء لما رأت القوم من حولها قد ذبلوا وقد رحلوا. ولعاش البشر في واد غير ذي زرع وماء، فكيف لهم المقام إن النحل امتنع عنهم أم هم مُنعوا.

وعلمت الأسود سبيل البقاء، فاجتمعت. وشدت الروابط فيما بينها لما علمت ضرورة الاجتماع، فأحدثت. علمت مرارة الاجتماع إن هي تباينت، وإن هي على الدوام فيما بينها اختلفت. فذويت الكل في لحم القبيل، وعليها أقامت الملك وتوجت. فسادت السهوب قديماً، ولم تنزل.

أخضعت سكان السهوب من عاشب وقارض ووحش ضار إلى قانون الأزل. فالترم كل مكون بالدور والوظيفة. فما أقامت قطعان العواشب طويلاً في أرض سهل، فأرهقتها. ولا طمع الوحش بأكثر من حاجته من فريسة، فهدد وجودها وبقائها. وها هي السهوب على حالها منذ أن أذن لها باريها فسواها. ولا زال العشب يشق أديم الأرض كل ربيع. ولا زال العاشب يعتاش على خصب السهوب ونباتها. ولم يزل الوحش يطارد الفريسة كل يوم، يتزود حاجته قوته من لحمها ولا يزيد.

وأما الإنسان، فعلم ضرورة اجتماعه لكنه فشل في تنظيم هذا الاجتماع. وكمن من أمة أصبحت أثراً طي النسيان لأنها اخفقت في تنظيم اجتماعها. فالإنسان حين اجتمع مع الآخر شاطرته المكان فقط، ولما يشاطره الرؤى والأهداف أو يقاسمه الملك والمكتسبات. هو لم ينس أبداً ذاته المتوحدة، ولم يستطع يوماً تلطيف جموح الأنا في دخيلته. فمخ نفسه كل الغايات، وسخر لها جميع الوسائل. ولا أدل على صدق ادعائي من مخرجات اجتماع الإنسان على ذاته بداية، وعلى الجميع من شركاء الوجود إذا ما أردنا تفصيلاً.

إذا كان اجتماع النحل والأسد موفور النفع لكل مقيم متحرك وساكن، فإن اجتماع الإنسان كان خلاف ذلك على طول الزمان وتنوع المكان. فحيثما أقام الإنسان مجتمعه كان الأذى واقعاً بجميع من حوله من المتحركات والسواكن. فهو قد نكب الأرض ولم يرحم. بقر بطنها، واغتصب بطاخها الخضرة فقتل فيها الحياة وأشاد ملكاً لا روح فيه ولا حياة. استنزف ثرواتها ما ظهر منها وما استبطن، وما زال يبحث. عكر ماءها ولوث هواءها، ولم يزل. أفقر تربتها، وأذبل نباتها. قضى على تنوع الحياة، أجدب أجناسها.

والآخر من جنس الإنسان لم يسلم من كوارث هذا الاجتماع العتيد. فهل أهدتكم عن ظلم الإنسان لنظيره في الخلق الإنسان؟ أم أهدتكم عن استغلال الإنسان لهذا لإنسان؟ فالإنسان الذي بلغ الفضاء ارتفاعاً، حفر عميقاً وقبيحاً في وجدان الإنسان بمثل ما ارتفع. فهو قد نهب، وقتل، وظلم، وسرق، وكذب، واستغل على أسوأ ما يكون الاستغلال، ثم كان له أن أقام هيكل حضارته المزعومة على دماء وعرق عظيم الضحايا.

فعجباً لك أيها الإنسان! عن أي حضارة أم أخلاق تدعي وتدين؟ فوالله لولا نللة قليلة من الأخيار والصالحين، لارتبت بفضلك على سكان الأرض الآخرين. ولولا كلمة سبقت من رب العالمين، فأصبحت حجة على جميع السامعين العابدين، لأنكرت عليك الكرامة أساساً. ولأنكرت عليك كل خلق وكل دين. لكن الحجة قائمة، وستظل ماثلة أمامي عند كل ملتبس وفي كل حين. فمادام العلي القدير قد أقر وأمر، فما علي أنا العابد المصدق إلا أن أقول آمين.. آمين.

## في سياقات أخرى، أنصح بقراءة المقالات التالية:

- أذيات العصبون المحرك العلوي، الفيزيولوجيا المرضية للأعراض والعلامات السريرية
- Upper Motor Neuron Injuries, Pathophysiology of Symptomatology
- هل يفيد التداخل الجراحي الفوري في أذيات النخاع الشوكي ونيل الفرس الرضية؟



- النقل العصبي، بين مفهوم قاصر وجديد حاضر  
*The Neural Conduction.. Personal View vs. International View*  
في النقل العصبي، موجات الضَّغط العاملة *Action Pressure Waves*
- في النقل العصبي، كمونات العمل *Action Potentials*  
وظيفة كمونات العمل والتيارات الكهربية العاملة
- في النقل العصبي، التيارات الكهربية العاملة *Action Electrical Currents*  
الأطوار الثلاثة للنقل العصبي  
المستقبلات الحسية، عبقرية الخلق وجمال المخلوق
- النقل في المشابك العصبية *The Neural Conduction in the Synapses*  
عقدة رانفييه، ضابطة الإيقاع *The Node of Ranvier, The Equalizer*  
وظائف عقدة رانفييه *The Functions of Node of Ranvier*  
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الأولى في ضبط معايير الموجة العاملة  
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثانية في ضبط مسار الموجة العاملة  
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثالثة في توليد كمونات العمل
- في فقه الأعصاب، الألم أولاً *The Pain is First*  
في فقه الأعصاب، الشكل.. الضرورة *The Philosophy of Form*  
تخطيط الأعصاب الكهربائي، بين الحقيقي والموهوم
- الصدمة النخاعية (مفهوم جديد) *The Spinal Shock (Innovated Conception)*  
أذيات النخاع الشوكي، الأعراض والعلامات السريرية، بحث في آليات الحدوث *The Spinal Injury, The Symptomatology*
- الرَّمع *Clonus*  
اشتداد المنعكس الشوكي *Hyperactive Hyperreflexia*  
اتساع باحة المنعكس الشوكي الاشتدادي *Extended Reflex Sector*  
الاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس الشوكي الاشتدادي *Bilateral Responses*  
الاستجابة الحركية العديدة للمنعكس الشوكي *Multiple Responses*
- التنكس الفاليري، يهاجم المحاور العصبية الحركية للعصب المحيطي.. ويعف عن محاوره الحسية  
Wallerian Degeneration, Attacks the Motor Axons of Injured Nerve and Conserves its Sensory Axons  
التنكس الفاليري، رؤية جديدة *Wallerian Degeneration (Innovated View)*  
التجدد العصبي، رؤية جديدة *Neural Regeneration (Innovated View)*
- المنعكسات الشوكية، المفاهيم القديمة *Spinal Reflexes, Ancient Conceptions*  
المنعكسات الشوكية، تحديث المفاهيم *Spinal Reflexes, Innovated Conception*  
خُلقت المرأة من ضلع الرجل، رائعة الإيحاء الفلسفي والمجاز العلمي  
المرأة تقرُّ جنس ولدها، والرجل يدعي!  
الرُّوح والنَّفْس.. عطية خالق وصنعة مخلوق  
خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.. في المرامي والدلالات  
تفاحة آدم وضلع آدم، وجهان لصورة الإنسان.
- هؤلاء.. هذه  
سفينة نوح، طوق نجاة لا معراج خلاص  
المصباح الكهربائي، بين التجريد والتنفيذ رحلة ألف عام

- هكذا تكلم ابراهيم الخليل -
- فقه الحضارات، بين قوة الفكر وفكر القوة -
- العدو وعلّة الاختلاف بين مطلقه وأرملة ذواتي عفاف  -
- تعدّد الزوجات وملك اليمين.. المنسوخ الأجل  -
- الثقب الأسود، وفرضية النجم الساقط  -
- جسيم بار، مفتاح أحجية الخلق  -
- صبي أم بنت، الأم تُقرّر!  -
- القدم الهابطة، حالة سريرية  -
- خلق حواء من ضلع آدم، حقيقة أم أسطورة؟  -
- Obstetrical Brachial Plexus Palsy شلل الصّغيرة العضدية الولادي  -
- الأذيات الرّضية للأعصاب المحيطيّة (١) التّشريح الوصفيّ والوظيفي  -
- الأذيات الرّضية للأعصاب المحيطيّة (٢) تقييم الأذية العصبية  -
- الأذيات الرّضية للأعصاب المحيطيّة (٣) التّديب والإصلاح الجراحي  -
- الأذيات الرّضية للأعصاب المحيطيّة (٤) تصنيف الأذية العصبية  -
- Pronator Teres Muscle Arcade قوس العضلة الكاتبة المدوّرة  -
- شبيه رباط Struthers- like Ligament ...Struthers  -
- عمليات التّقل الوترية في تديب شلل العصب الكعبري Tendon Transfers for Radial Palsy  -
- Who Decides the Sex of Coming Baby? (Concise)  -
- من يُقرّر جنس الوليد (مختصر)  -
- ثالوث الذكاء.. زاد مسافر! الذكاء الفطري، الإنساني، والاصطناعي.. بحث في الصّفات والمآلات  -
- المعادلات الصّفريّة.. الحدائث، مالها وما عليها  -
- متلازمة العصب بين العظام الخلفي Posterior Interosseous Nerve Syndrome  -
- المنعكس الشوكي، فيزيولوجيا جديدة Spinal Reflex, Innovated Physiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي، في فيزيولوجيا المرضية Hyperreflex, Innovated  -
- Pathophysiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (١)، فيزيولوجيا المرضية لقوة المنعكس Hyperreflexia,  -
- Pathophysiology of Hyperactive Hyperreflex  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٢)، فيزيولوجيا المرضية للاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس  -
- Hyperreflexia, Pathophysiology of Bilateral- Response Hyperreflex  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٣)، فيزيولوجيا المرضية لانتساع ساحة العمل Extended  -
- Hyperreflex, Pathophysiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٤)، فيزيولوجيا المرضية للمنعكس عديد الإستجابة الحركية  -
- Hyperreflexia, Pathophysiology of Multi-Response hyperreflex  -
- الرّمع (١)، الفرضية الأولى في فيزيولوجيا المرضية  -
- الرّمع (٢)، الفرضية الثانية في فيزيولوجيا المرضية  -
- خلق آدم وخلق حواء، ومن ضلعه كانت حواء Adam & Eve, Adam's Rib  -
- جسيم بار، الشاهد والبصيرة Barr Body, The Witness  -
- جدليّة المعنى واللامعنى  -
- التّديب الجراحي لليد المخليّة Surgical Treatment of Claw Hand (Brand Operation)  -

- الانقسامُ الخلويُّ المتساوي الـ Mitosis
- المُتمماتُ الغذائيَّةُ الـ Nutritional Supplements، هل هي حقاً مفيدةٌ لأجسامنا؟
- الانقسامُ الخلويُّ المُنصفُ الـ Meiosis
- فيتامين د Vitamin D، ضمانةُ الشَّبابِ الدَّائم
- فيتامين ب6 Vitamin B6، قليلُهُ مفيدٌ.. وكثيرُهُ ضارٌّ جدًّا
- والمهنةُ.. شهيدٌ، من قصصِ البطولةِ والفداء
- التَّقبُّ الأسودُ والتَّجَمُّ الذي هوى
- خلقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فرضيَّةُ الكونِ السَّديميِّ المُتَّصل
- الجواري الكُنُسُ الـ Circulating Sweepers
- عندما ينفصمُ المجتمعُ.. لمن تتجملين هيفاء؟
- التَّصنِيعُ الذَّاتيُّ لمفصلِ المرفقِ Elbow Auto- Arthroplasty
- الطَّوفانُ الأخيرُ، طوفانُ بلا سفينة
- كشَفُ المَسْئورِ.. معَ الاسمِ تُكونُ البدايَةُ، فنكونُ الهويَّةُ خاتمةَ الحكاية

٢٠٢٠/١١/٢